زوجة إمام[1]

(١)

جلس جماعةُ أصحابِ الحديث في مسجد الكوفة ينتظرون قدومَ شيخِهم الإمام « أبي محمد سليمان الأعمش[2] » ليسمعوا منه الحديث ، فأبطأ عليهم ؛ فقال منهم قائل : هلمُّوا نتحدَّثْ عن الشَّيخ ، فنكونِ معه ، وليس معنا . فقال أبو معاوية الضَّرير : إلى أن يكون معنا ، ولسنا معه . فخطرت ابتسامةٌ ضعيفةٌ تهتزُّ على أفواه الجماعة ، لم تبلغ الضَّحك ، ومرَّت لم تسمَع ، وكأنَّها لم تُرَ ، وانطلقت من المباح المغْفُوِّ عنه . ولكنْ أكبرَها أبو عتَّاب منصور بن المُعْتَمر ، فقال : ويلك يا أبا معاوية ! أتتندَّر بالشَّيخ وهو منذ السِّتِّين سنةً لم تفُتْه التكبيرة الأولى في هذا المسجد ، وعلى أنَّه مُحدِّث الكوفة ، وعالِمها ، وأقرأُ الناس لكتاب الله ، وأعلمُهم بالفرائض ، وما عَرَفتِ الكوفة أعبدَ منه ، ولا أفقه في العبادة ؟

فقال محمَّد بن جُحَادة[3] : أنت يا أبا عتَّاب ! رجلٌ وحدَك ، تواصل الصَّوم[4] منذ أربعين سنة ، فقد يَبِسْتَ على الدَّهر ، وأصبح الدهر جائعاً منك ، وما برحتَ تبكي من خشية الله ، كأنَّما اطلعت على سواءِ الجحيم ، ورأيت النَّاس يتواقعون فيها ، وهي لهبٌ أحمر يلتفُّ على لهبٍ أحمر ، تحت دُخانٍ أسود ، يتضرَّبُ في دخانٍ أسود ، يتغامس الإنسان فيها ، وهي مِلءُ السَّموات ، فما يكون إلا كالذُّبابة أوْقدُوا لها جبلاً ممتداً من النَّار ، ينْطاد[5] بين الأرض والسَّماء ، وقد ملأ ما بينهما جمراً ، وشعلاً ، وَحُمَماً ، ودُخاناً ، حتَّى لتتهارَبُ السُّحُب في أعلى السماء من حرِّه ، وهو على هوْلِه ، وجسامته لِحَرْق ذبابةٍ لا غيرها ، بَيْدَ أنَّها ذبابةٌ تحرق أبداً ، ولا تموت أبداً ، فلا تزال ، ولا يزال الجبل . . . !

فصاح أبو معاوية الضَّرير : ويحك يا محمد ! دعِ الرَّجل وشأنَه ! إنَّ لله عباداً

---

(١) انظر : « عود على بدء » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) وُلد هذا الإمام العظيم سنة (٦١) للهجرة ، وتوفي سنة (١٤٨) . (ع) .

(٣) « الجحادة » : هي الغرارة الممتلئة ، فكانت أمه تُشَبِّهُ بها لضخامتها . (ع) .

(٤) « تواصل الصوم » : الوصالُ في الصيام منهيٌّ عنه في الإسلام .

(٥) « ينطاد » : يرتفع .

متاعُهم ممَّا لا نعرف ، كأنَّهم يأكلون ، ويشربون في النَّوم ، فحياتهم من وراء حياتنا ، وأبو عتَّاب في دنيانا هذه ليس هو الرَّجل ؛ الَّذي اسمه : « منصور » ، ولكنَّه العمل الذي يعمله « منصور » . هل أتاكم خبر قارىء المدينة « أبي جعفر الزَّاهد » ؟

قال الجماعة : ما خبره يا أبا معاوية ؟ ! قال : لقد تُوفِّي من قريبٍ . فرئِي بعد موته على ظهر الكعبة ، وسترون أبا عتَّاب ـ إذا مات ـ على منارة هذا المسجد !

فصاح أبو عتَّاب : تخلَّل يا أبا معاوية ! أما حفظت خبر ابن مسعود : « كنَّا عند النَّبيِّ ﷺ ، فقام رجلٌ ، فوقع فيه رجل من بعده ؛ فقال النَّبيُّ ﷺ : « تخلَّلْ[1] » قال : « ممَّ أتخلَّلْ ؟ ما أكلت لحماً ؟» قال : « إنَّك أكلتَ لحم أخيك ! »[2] .

فتقلْقل[3] الضَّرير في مجلسه ، وتنحْنح ، وهمهم أصواتاً بينه وبين نفسه ، وأحسَّ الجماعة شأنه ، وقد عرفوا : أنَّ له شرّاً مُبصراً كالذي كان فيه من المزْح ، والدُّعابة . وشراً أعمى هذه بوادرُه ؛ فاستَلب ابن جُحادة الحديث ممَّا بينهما ، وقال : يا أبا معاوية ! أنت شيخنا ، وبركتنا وحافظُنا ، وأقربُنا إلى الإمام ، وأمسُّنا به ؛ فحدّثنا حديث الشيخ كيف صنع في ردِّه على هِشام بن عبد الملك[4] وما كان بينك وبين الشَّيخ في ذلك ، فإنَّ هذا ممَّا انفردت أنت به دون النَّاس جميعاً ؛ إذ لم يسمعه غير أذنيك ، فلم يحفظه غيرُك ، وغير الملائكة .

فأسفرَ وجه أبي معاوية . وسُرِّيَ عنه ، واْهتزَّ عِطْفاه ، وأقبل عليهم بعفو القادر . . . وأنشأ يحدِّثهم ، قال :

إنَّ هِشاماً ـ قاتله الله ـ بعث إلى الشَّيخ : أن اكتب لي مناقب عثمان ومَساوىءَ عليٍّ ، فلمَّا قرأ كتابه كانت داجِنةٌ[5] إلى جانبه ، فأخذ القرطاس وألقمَه الشَّاة ، فلاكَتْه حتَّى ذهب في جوفها . ثمَّ قال لرسول الخليفة : قل له : هذا جوابُك !

(١) « تخلّل » : استعملِ الخلال لإخراج ما بين الأسنان من الطعام عموماً ، واللحم خصوصاً .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١٧٢) .
(٣) « تقلقل » : تحرّك .
(٤) بُويع هشام سنة (١٠٥) للهجرة ، وتوفي سنة (١٢٥) . (ع) .
(٥) « داجنة » : هي كل ما أَلِفَ الإقامةَ مع الناس في بيوتهم ؛ من الطير والحيوان .

فخشي الرسول أن يرجع خائباً ، فيقتله هشام ؛ فما زال يتحمَّل بنا ، فقلنا : يا أبا محمد ! نجِّه من القتل . فلمَّا ألححْنا عليه ؛ كتب :

« بسم اللهَ الرَّحمٰن الرَّحيم . أمَّا بعد يا أمير المؤمنين ! فلو كانت لعثمان ـ رضي الله عنه ـ مناقب أهل الأرض ما نفعتك ، ولو كانت لعليٍّ ـ رضي الله عنه ـ مساوىءُ أهل الأرض ما ضرَّتك ، فعليك بخُوَيْصة نفسك ، والسَّلام ! »

فلمَّا فصَل الرَّسول قال لي الشيخ : إنَّه كان في خُراسان محدِّثٌ اسمه : « الضَّحَّاك بن مُزاحم الهلالي » وكان فقيه مكتبٍ عظيمٍ ، فيه ثلاثة آلاف صبيٍّ يتعلَّمون ؛ فكان هذا الرَّجل إذا تعب ؛ ركب حماراً ، ودار به في المكتب عليهم ، فيكون إقبال الحمار على الصَّبيِّ همَّاً ، وإدبارُه عنه سروراً . وما أرى الشَّيطان إلا قد تعب في مكتبه ، وأعيا ، فركبَ أميرَ المؤمنين . . . ليدور علينا نحن يسألنا : ماذا حفظنا من مساوىء عليٍّ ؟

قلت : فلماذا ألقمتَ كتابه الشَّاة ، ولو غسلته ، أو أحرقته ؛ كان أفهم له ، وكان هذا أشبهَ بك ؟ فقال : ويحك يا أبله ! لقد شابت البلاهة في عارِضَيك[1] ! إنَّ هشاماً سيتقطع منها غيظاً ، فما يُخفي عنه رسوله أنِّي أطعمت كتابَه الشَّاة ، وما يُخفي عنه دهاؤه : أنَّ الشاة ستَبْعَرُه من بعد . . . !

قلت : أفلا تخشى أمير المؤمنين ؟

قال : ويحك ! هذا الأحول عندك أمير المؤمنين ؟ أبما ولدته أمَّه من عبد الملك ؟ فهبها ولدته من حائك ، أو حجام ! إنَّ إمارة المؤمنين يا أبا معاوية ! هي ارتفاع نفس من النُّفوس العظيمة إلى أثر النُّبوة ؛ كأنَّ القرآن عَرض المؤمنين جميعاً ، ثمَّ رضي منهم رجلاً للزَّمن ؛ الذي هو فيه ، ومتى أصيب هذا الرَّجلُ القرآني ، فذاك وارث النَّبيِّ في أمَّته ، وخليفته عليها ، وهو يومئذ أمير المؤمنين ، لا مِنْ إمارة الملك والتَّرف ، بل مِنْ إمارة الشَّرع ، والتَّدبير ، والعمل ، والسِّياسة .

هذا الأحول ؛ الَّذي التف كدودة الحرير في الحرير ، وأقبل على الخيل لا للجهاد ، والحرب ، ولكن لِلَّهو ، والحلْبَة ، حتَّىٰ اجتمع له من جياد الخيل

(١) « عارضيك » : مثنى عارض ؛ صفحة الخد .

أربعة آلاف فرسٍ ، لم يجتمع مثلها لأحدٍ في جاهليةٍ ، ولا إسلام ، وعمل الخزّ ، وقطف الخزّ[١] ، واستجاد الفرش ، والكُسوة ، وبالغ في ذلك ، وأنفق فيه النَّفقات الواسعة ، وأفسد الرُّجولة بالنعيم ، والتَّرف ، حتّىٰ سلك النّاس في ذلك سُنَّته ، فأقبلوا بأنفسهم على لهو أنفسهم ، وصنعوا الخير صنعةً جديدة بصرفه إلى حظوظهم ، وتركوا الشَّرَّ على ما هو في النَّاس ، فزادوا الشَّرَّ ، وأفسدوا الخير ، ولم يعد الفقراء ، والمساكين عندهم هم الفقراء ، والمساكين من النّاس ، بل بطونهم ، وشهواتهم . . . ! ولقد كان الرجل من أغنياء المسلمين يقتصد في حظّ نفسه ليَسَع ببرِّه مئةً أو مئتين أو أكثر من إخوانه ، وذوي حاجته ، فعاد هذا الغني يتسع لنفسه ثمَّ يتَّسع ، حتى لا يكفيه أن يأكل رزقه مئة أومئتين أو أكثر ! .

إنَّ هذا الإسلام يجعل أحسن المسرات أحسنها في بذلها للمحتاجين ، لا في أخذها ، والاستئثار بها ، فهي لا تضيع على صاحبها إلا لتكون له عند الله ، وكأنَّ الفقر ، والحاجة ، والمسكنة ، والإنفاق في سبيل الله ، كأنَّ هذه أرَضون يُغرس فيها الذَّهب ، والفضَّة غرساً لا يؤتي ثمره إلا في اليوم الَّذي ينقلب فيه أغنى الأغنياء على الأرض ، وإنَّه لأفقر الناس إلى درهمٍ من رحمة الله وإلى ما دون الدِّرهم ؛ فيقال له حينئذٍ : خذ من ثمار عملك ، وخذ ملء يديك ! .

والسُّلطان في الإسلام هو الشَّرع مَرئياً يُتابعه النَّاس ، متكلِّماً يفهمه النَّاس ، آمراً ، ناهياً ، يطيعه النّاس . ولقد رأى المسلمون هذه الأحوال ، وتابعوه ، وسمعوا له ، وأطاعوا ، فمنعوا ما في أيديهم ، فانقطع الرفد[٢] ، وقلَّ الخير ، وشحَّت الأنفس ، وأصبح خيرهم خيرهم لبطنه ، وشهواته ، وصار الزَّمان أشبه بناسِه ، والنَّاس أشبه بملكهم ، وملكهم في شهواته « فقير المؤمنين » لا أمير المؤمنين ! .

إن هذه الإمارةَ يا أبا معاوية ! إنَّما تكون في قرب الشَّبه بين النَّبيِّ ومن يختاره المؤمنون للبيعة . وللنَّبيِّ جهتان : إحداهما إلى ربِّه ، وهذه لا يطمع أحد أن يبلغ مبلغه فيها ؛ والأخرى إلى الناس ، وهذه هي التي يقاس عليها . وهي كلُّها رِفقٌ ،

(١) « الخز » : ثياب تُنسَج من صوف وإبريسم ، وهو أحسنُ الحرير .
(٢) « الرفد » : العطاء والصِّلة .

ورحمةٌ ، وعملٌ ، وتدبيرٌ ، وحِياطةٌ ، وقوَّةٌ ، إلىٰ غيرها ممّا يقومُ به أَمرُ النّاس ؛ وهي حقوقٌ ، وتبِعاتٌ ثقيلةٌ ، تنصرف بصاحبها عن حظِّ نفسه ، وبهذا الانصراف تجذبُ النّاسَ إلى صاحبها ؛ **فإمارة المؤمنين هي بقاء مادَّة النُّور النَّبويِّ في المصباح ؛ الذي يضيء للإسلام ، بإمداده بالقدْرِ بعد القدْر من هذه النُّفوس المضيئة** ؛ فإن صَلُح التُّراب ، أو الماء مكانَ الزَّيت في الاستضاءة ، صلح هشام ، وأمثاله لإمارة المؤمنين !

ويلٌ للمسلمين في حين ينظرون ، فيجدون السُّلطانَ عليهم بينه وبين النَّبيِّ مثل ما بين دينين مختلفين . ويل يومئذٍ للمسلمين ! ويل يومئذٍ للمسلمين ! .

* * *

فلمّا أتمَّ الضَّرير حديثَه قال ابن جحادة : إنَّ شيخنا علىٰ هذا الجِدِّ ليمزح ، وسأحدِّثكم غيرَ حديث أبي معاوية ، فقد رأيتُ الدُّنيا كأَنّما عرفت الشَّيخ ، ووقفت على حقيقته السَّماوية ، فقالت له : أضحك منِّي ، ومن أهلي ! ولكن وقارَه ودينه آرتفعا به أن يضحكَ بفمه ضَحِكَ الجهلاء ، والفارغين ، فضحِك بالكلمة بعد الكلمة من نوادره .

لقد كنت عنده في مَرضتِه ، فعاده « أبو حنيفة » صاحبُ الرَّأي ، وهو جبَل عِلْمٍ شامخٍ ، فطَوَّلَ القعودَ ممّا يُحبُّه ويأنسُ به ؛ إذ كانت الأرواح لا تعرف مع أحبابها زمناً يطولُ ، أو يقصر ؛ فلما أراد القيامَ ؛ قال له : ما كأنّي إلا ثقلتُ عليك . فقال الشَّيخ : إنك لثقيلٌ عليَّ وأنت في بيتك . . . ! وضحك أبو حنيفة كأنَّه طفلٌ يلاغِيه[١] أبوه بكلمةٍ ليس فيها معناها ، أو أبٌ داعَبه طفلُه بكلمةٍ فيها غير معناها .

وجاءه في الغداة قومٌ يعودونه ، فلمّا أطالوا الجلوسَ عنده أخذ الشيخ وسادته ، وقام منصرفاً ، وقال لهم : قد شفى الله مريضَكم . . . ! .

فقال الضَّرير : تلك رَوْحَةٌ من هواء دُنباوند[٢] ، فإنَّ أبا الشيخ كان من تلك الجبال ، وقدم إلى الكوفة وأمُّه حاملٌ ؛ فولِدَ هنا ؛ فكأنَّ في دمه ذلك النَّسيم تهبُّ منه النَّفحة بعد النَّفحة في مثل هذه الكلمات المُتنسِّمة ؛ ثمَّ هي رُوحه الظَّريفةُ الطَّيِّبة

---

(١) « يلاغيه » : يمازحه .

(٢) ناحية من رستاق الري في الجبال الثلجية ، وهي من بلاد العجم . (ع) .

تلمِسُ بعض كلامه أحياناً ، كما تلمسُ روح الشّاعر بعضَ كلام الشّاعر ؛ وما رأيت أدقَّ النّوادر السّاخرة ، وأَبلغها ، وأَعجبها يجيء إلا من ذوي الأرواح الشّاعرة الكبيرة البعيدةِ الغَور ، كأنّما تأتي النَّادرة من رؤية النَّفس حقيقتين في الشيء الواحد . والإمام في ذلك لا يسخَر من أحدٍ ، إلا إذا كانت الأرضُ حين تخرج الثَّمرةَ الحلوةَ تسخَر بها من الثَّمرة المرَّة ! .

والعجيبُ : أنَّ النادرةَ البارعة ؛ الَّتي لا تتَّفق إلا لأقوى الأرواح ، يتَّفق مثلها لأضعف الأرواح ؛ كأنَّها تسخر من النّاس ، كما يسخرون بها . فهذا « أبو حَسَن » مُعلِّم الكتّاب ، جاءه غلامان من صِبيَتِه قد تعلَّق أحدهما بالآخر ، فقال : يا معلِّم ! هذا عضَّ أذني . فقال الآخر : ما عَضَضْتُها ، وإنما هو عضَّ أذنَ نفسه . . . فقال المعلم : وتمْكرُ بي أيضاً يا بن الخبيثة ؟! أهو جَملٌ طويل العنق حتى ينال أذنَ نفسه فيعضَّها . . . ! .

* * *

وطلع الشَّيخ عليهم وكأنَّما قرأ نفسَ أبي معاوية في وجهه المتفتح . ومن عجائب الحكمة : أنَّ الذي يُلمحُ في عيني المبصِر من خوالج نفسه ، يُلمح على وجه الضَّرير مُكبّراً مجسّماً ، وكان الشيخ لا يأنسُ بأحدٍ أنسه بأبي معاوية ، لذكائه ، وحِفظه ، وضبْطه ، ولمشاكلة[1] الظَّرف الروحي بينهما ؛ فقال له :

ـ « فيمَ كان أبو معاوية ؟» .
ـ « كان أبو معاوية في الَّذي كان فيه !» .
ـ « وما الَّذي كان فيه ؟» .
ـ « هو ما تسأل عنه !» .
ـ « فأجبني عمّا أسأل عنه ! » .
ـ « قد أجبتُك !» .
ـ « بماذا أجبتَ ؟» .
ـ « بما سمعت !» .

فتقبَّضَ وجهُ الشَّيخ ، وقال : « أهنا ، وهناك معاً ؟ لو أنَّ هذا من امرأةٍ غضبى

---

(١) « مشاكلة » : مشابهة ، وتماثل .

على زوجها ؛ لكان له معنى ، بل لا معنى له ، ولا من امرأة غضبى على زوجها . أَحْسَبُ لولا أنَّ في منزلي من هو أبغضُ إليَّ منكم ما خرجت ؟» فقال الضرير : « يا أبا محمد ! كأنَّنا زوجاتُ العِلم ، فأيَّتُنا الَّتي حَظيَت ، وبَظيت[1] . . . » .

فغطَّى الجماعةُ أفواههم يضحكون ، وتبسَّم الشَّيخ ، ثمَّ شرع يحدِّث ؛ فأفضى من خبرٍ إلى خبرٍ ، وتسرَّح في الرِّواية حتّىٰ مرَّ به هذا الحديث :

عن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ هلاكَ الرِّجال طاعتُهم لنسائهم » .

قال الشَّيخ : كان الحديث بهذا اللفظ ، ولم يقل النَّبيُّ ﷺ : « هلاك الرَّجلَ طاعتُه لامرأته » ؛ فإنَّ هذا لا يستقيم ؛ إذ يكون بعضُ النِّساء أحياناً أكمل من بعض الرِّجال ؛ وأوفرَ عقلاً ، وأسدَّ رأياً ، وقد تكون المرأة هي الرَّجلَ في الحقيقة عزماً وتدبيراً ، وقوةَ نفسٍ ، ويتليَّنُ الرَّجل معها كأنَّه امرأةٌ ، وكثيرٌ من النِّساءِ يكنَّ نساءً بالحلية ، والشَّكل دون ما وراءهما ؛ كأنَّما هُيِّئنَ رجلاً في الأصل ، ثمَّ خُلِقن نساءً بعدُ ، لإحداثِ ما يريد الله أن يحدِث بهنَّ ، ممّا يكون في مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين في الخير ، أو الشَّرِّ .

وإنَّما عَمَّ الحديثُ ليدلَّ على أنَّ الأصلَ في هذه الدُّنيا أن تستقيم أمورُ التَّدبير بالرِّجال ؛ **فإنَّ البأس ، والعقل يكونان فيهم خِلقةً ، وطبيعةً أكثر ممَّا يكونان في النِّساء ، كما أنَّ الرقَّة ، والرَّحمة في خِلْقة النِّساء ، وطبيعتهنَّ أكثر ممَّا هما في الرِّجال** ، فإذا غلبتْ طاعةُ النِّساء في أمَّةٍ من الأمم ، فتلك حياةٌ معناها هلاكُ الرِّجال ، وليس المراد هلاكَ أنفسِهم ، بل هلاكَ ما هم رجالٌ به ، والحديد حديدٌ بقوَّته ، وصلابته ، والحجرُ حجرٌ بشدَّته واجتماعه ؛ فإن ذاب الأوَّلُ ، أو تفلَّل[2] ، وتناثر الآخر ، أو تفتَّت ؛ فذاك هلاكهما في الحقيقة ؛ وهما بعدُ لا يزالان من الحجر ، والحديد .

المرأة ضعيفةٌ بفطرتها ، وتركيبها ، وهي على ذلك تأبى أن تكونَ ضعيفةً أو تقِرَّ بالضَّعف ، إلا إذا وجدت رجُلها الكامل ؛ رجلها الَّذي يكون معها بقوَّته ، وعقله ،

(١) « حظيت وبظيت » : قال ابنُ منظور في لسان العرب (١٤/ ٧٤) : حظيت المرأة عند زوجها . وبظيت : إتباع له ؛ لأنه ليس في الكلام (ب ظ ي) .

(٢) « تفلل » : تكسَّر . وفلَّ السيفَ : ثَلَمه ، وكَسَر حدَّه .

وفتْنتِه لها ، وحبِّها إياه ؛ كما يكون مثالٌ مع مثالٍ . ضَع مئة دينار بجانب عشرة دنانير ؛ ثمَّ اترك للعشرة أن تتكلَّم ، وتدَّعي ، وتستطيل ، قد تقول : إنَّها أكثر إشراقاً ؛ أو أظرفُ شكلاً ؛ أو أحسن وضعاً وتصفيفاً ؛ ولكنَّ الكلمةَ المحرَّمة هنا أن تزعم أنَّها أكبرُ قيمةً في السُّوق . . . !

قال الشَّيخ : ومَن مِن النِّساء تصيبُ رجُلَها الكامل ، أو القريبَ من كماله عندها ، أي : كمالِ طبيعته بالقياس إلى طبيعتها ، كمال جسم مُفصَّلٍ لجسمٍ ، تفصيلَ الثَّوب الَّذي يَلبسهُ ، ويختالُ فيه ؟ أما إنَّ هذا من عمل الله وحده كما يبسطُ الرِّزقَ لمن يشاء من عباده ، ويَقْدِر ؛ يبسُط مثل ذلك للنِّساء في رجالهنَّ ، ويَقدر .

فإذا لم تصِبِ المرأةُ رجلُها القويَّ ـ وهو الأعمُّ الأغلب ـ لم تستطع أن تكون معه في حقيقة ضعفها الجميل ، وعملت على أن يكون الرَّجلُ هو الضَّعيف ؛ لتكون معه في تزوير القوَّة عليه ، وعلى حياته ، وبهذا تخرج من حيِّزها ، وما أوَّل خروج النِّساء إلى الطُّرقات إلا هذا المعنى ؛ فإنْ كثُر خروجهنَّ في الطريق ، وتسكُّعهُنَّ هاهنا وهاهنا ، فإنَّما تلك صورةٌ من فساد الطَّبيعة فيهنَّ ، ومن إملاقها أيضاً . . .

قال الشَّيخ : وكأنَّ في الحديث الشَّريف إيماءً إلى أنَّ من بعض الحقِّ على النِّساء أن يتنزلنَ عن بعض الحقِّ ؛ الذي لهنَّ إبقاءً على نظام الأمَّة ، وتيسيراً للحياة في مجراها ، كما ينزل الرَّجل عن حقِّه في حياته كلِّها إذا حارب في سبيل أمَّته ، إبقاءً عليها ، وتيسيراً لحياتها في مَجْراها . فصبر المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسه جهادُها ، وحربها في سبيل الأمَّة ؛ ولها عليه من ثواب الله مثلُ ما للرَّجل يُقتل أو يُجرح في جهاده .

ألا وإنَّ حياة بعض النِّساء مع بعض الرِّجال تكون أحياناً مثل القتل ، أو مثل الجرح ، وقد تكون مثل الموت صبراً على العذاب ! ولهذا قال رسول الله ﷺ لِمُزَوَّجةٍ يسألها عن حالها ، وطاعتها وصبرها مع رجلها : « فأين أنتِ منه » ؟ قالت : ما آلوه إلا ما عَجزت عنه ! قال : « فكيف أنت له ؟ فإنَّه جنَّتك ، ونارُك »[1] .

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٤١) والنسائي في عشرة النساء (٧٦ ـ ٧٧) والحاكم (٢/ ١٨٩) والبيهقي (٧/ ٢٩١) .

آه! آه! حتَّى زواج المرأة بالرَّجل هو في معناه مُرُور المرأة المسكينة في دنيا أخرى إلى موتٍ آخر ، ستحاسَب عنده بالجنَّة والنَّار ، فحسابها عند الله نوعان : ماذا صنعتِ بدنياكِ ، ونعيمها ، وبؤسها عليك ؟ ثم ماذا صنعت بزوجك ونعيمه ، وبؤسه فيك ؟

وقد روينا : أنَّ امرأة جاءت النَّبيَّ ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ! إني وافدة النِّساء إليك ، ثم ذكرتْ ما للرِّجال في الجهاد من الأجر ، والغنيمة ، ثمَّ قالت : فما لنا مِنْ ذلك ؟

فقال ﷺ : « أبلِغي من لقيت من النِّساء : أنَّ طاعةً للزَّوج ، واعترافاً بحقِّه يعدِل ذلك . وقليلٌ منكنَّ من يفعله ! »[1] .

قال الشَّيخ : تأمَّلوا ، واعجبوا من حكمة النُّبوَّة ، ودقَّتها ، وبلاغتها ؛ أيقال في المرأة المحِبَّة لزوجها المفتتنة به ، المعجبة بكماله : إنَّها أطاعته ، واعترفت بحقِّه ؟ أوليس ذلك طبيعة الحبِّ إذا كان حبّاً ؟ فلم يبق إذاً إلا المعنى الآخر ، حين لا تصيب المرأة رجلها المفصَّل لها ، بل رجلاً يُسمَّى زوجاً ؛ وهنا يظهر كرم المرأة الكريمة ، وها هنا جهاد المرأة وصبرها ، وها هنا بذْلها لا أخْذُها ، ومن كلِّ ذلك ها هنا عملها لجنَّتها ، أو نارها .

فإذا لم يكن الرَّجل كاملاً بما فيه للمرأة ، فلتبْقِه هي رجلاً بنزولها عن بعض حقِّها له ، وتركِها الحياة تجري في مجراها . وإيثارِها الآخرة على الدُّنيا ، وقيامِها بفريضة كمالها ، ورحمتها ، فيبقى الرَّجل رجلاً في عمله للدُّنيا ، ولا يمْسخ طبعه ، ولا ينتكس بها ، ولا يَذِلُّ ، فإنْ هي بدأت ، وتسلَّطت ، وغلبت ، وصرَّفت الرَّجل في يدها ، فأكثر ما يظهر حينئذٍ في أعمال الرِّجال من طاعتهم لنسائهم ؛ إنَّما هو طيش ذلك العقل الصَّغير وجُرأته ، وأحياناً وقاحته ؛ وفي كلِّ ذلك هلاك معاني الرُّجولة ، وفي هلاك معاني الرُّجولة هلاك الأمَّة !

قال الشَّيخ : والقلوب في الرِّجال ليست حقيقيَّةً أبداً ، بطبيعة أعمالهم في الحياة ، وأمكنتهم منها ، ولكنَّ **القلب الحقيقيَّ هو في المرأة ، ولذا ينبغي أن يكون فيه السُّموُّ فوق كلِّ شيءٍ إلا واجب الرَّحمة ؛ ذلك الواجب الذي يتَّجه إلى القويِّ ،**

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٤٧٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٥).

فيكون حبّاً ، ويتّجه إلى الضّعيف ، فيكون حَناناً ، ورقّةً ، ذلك الواجب هو اللُّطف ، ذلك اللُّطف هو الّذي يُثبت : أنّها امرأةٌ .

قال أبو معاوية : وانفضَّ المجلس ، ومنعني الشّيخ أن أقوم مع النّاس ، وصَرَف قائدي ؛ فلمّا خلا وجهُه ، قال : يا أبا معاوية ! قُم معي إلى الدّار . قلتُ : ما شأنٌ في الدّار يا أبا محمد ؟! قال : إنَّ (تلك) غاضبةٌ عليَّ ، وقد ضاقت الحالُ بيني وبينها ، وأخشى أن تتباعَد ، فأريدُ أن تصلِح بيننا صُلحاً .

قلت : فممَّ غضبُها ؟ قال : لا تسألُ المرأة مِمَّ تغضب ، فكثيراً ما يكون هذا الغضبُ حركةً في طباعها ، كما تكون جالسةً ، وتريد أن تقوم ، فتقوم ، وتريدُ أن تمشي ، فتمشي !

قلت : يا أبا محمد ! هذا آخرُ أربع مرّاتٍ[1] تغضب عليك غَضَبَ الطّلاق ، فما يَحبِسُك عليها والنِّساء غيرها كثير ؟!

قال : ويحك يا رجل ! أبائعُ نساءٍ أنا ؟ أما علمتَ أَنَّ الذي يطلّق امرأة لغير ضرورةٍ مُلجئةٍ ، هو كالّذي يبيعها لمن لا يدري كيف يكون معها ، وكيف تكون معه ؟ إنَّ عُمر الزّوجة لو كان رقبةً ، وضربت بسيفٍ قاطع ؛ لكان هذا السّيف هو الطّلاق !

وهل تعيش المطلَّقة إلا في أيام ميّتة ؟ وهل قاتِلُ أيّامها إلا مطلِّقها ؟

قال أبو معاوية : وقمنا إلى الدّار ، واستأذنتُ ، ودخلت على (تلك) . . .

* * *

---

(١) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس : « هذه رابع مرة » . (ع) .